الكلمة من سوائح الله

وحديث عن الشعر والنثر

الدكتور حسن عيسى عبد الظاهر

١ ـ لا تعرف انسانا حتى **تختبره** ، ولا تستبين عقله ، وتخبر شخصيته ، حتى **تخاطبه** فتسمع بيانه ، وتعرف منطقه ، فالمرء ـ كما قيل ـ مخبوء تحت طي لسانه لا تحت طيلسانه !! فاذا تكلم ظهر وعرف .

وقد سئل حكيم : في كم تعرف الرجل ؟ فقال : إن سكت في يوم ، وإن نطق في ساعة .

لذا كان من تمام نعمة الله تعالى على الانسان أن فضله وكرمه بنعمة الهداية والبيان فقال تعالى : (الرحمن علم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان) ، الرحمن : ١ ـ ٤ ، فبالبيـــان يخبر الانسان عما في نفسه من الحكمة التي يفيدُها ، والمعرفة التي يكتسبها ، ويبين عما يختلج بين جوانبه من عواطف ، وما يجول في عقله من أفكار ، وما يحتاجه في حياته من مطالب .

فقدر البيان عظيم ، ومنطق اللسان خطير ، فيه سعادة الانسان وفيه شقاؤه ، بل هو جنته **وناره ، فهو يعبر عن إيمانه بكلمة التوحيد** ، ويعرب بقوله عن كفره ونفاقه (ولتعرفنهم في لحن القول) ـ محمد: ٣٠ ، يقال : لحن له أي قال قولا يفهمه عنه ويخفى على غيره (قد بدت البغضاء من أفواههم) ـ سورة آل عمران: ١١٨ ـ

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغته فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم الدين ـ القيامة ـ وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة) رواه الترمذي ، وقال : حسن صحيح ، ويقول صلى الله عليه وسلم : (وهل يكب الناس على مناخرهم في نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم) أي ما قالته الألسنة من الكلام الذي لا خير فيه ، والحصائد : الزرع المحصود .

٢ ـ والانسان يبين عما في نفسه ، ويترجم عن عقله بالتعبير إما :

أ ـ **بالكلمة المسموعة** : حديثا مشافها ، أو حوارا متبادلا ، أو همسا خافتا ، أو خطابا مؤثرا .

ب ـ **وإما بالكلمة المكتوبة** : رسالة منمقة ، أو مقالا مديجا ، أو بحثا مهذبا ، أو كتابا مؤلفا ، أو قصة في أي شكل كانت .

جـ ـ وهناك من انواع التعبير الصامت : الاشارة ، والصورة ، والرسم وغيرها على حد قول القائل :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

والتعبير بشقيه ـ المسموع والمكتوب ـ يقسمه علماء البلاغة والبيان إلى قسمين اساسيين :

القسم الأول : هو التعبير **شعرا** .

القسم الثاني : هو التعبير **نثرا** .

ويهما وفيهما جميعا يقوم البيان بليغا ، أو عييا ، موجزا ، أو مسهبا .

الشعر

٣ ـ أما الشعر فهو ذلك التعبير الانشائي الذي يحدث في النفس لذة وتأثيرا فتستجيب له حفظا وتأثرا ، ويتميز بصياغته الموزونة المقفاة في قالب موسيقي يعتمد فيه على أجزاء من الكلام يشبه بعضها بعضا في : الطول والقصر ، والحركة والسكون ، وحدتها البيت الذي تتشابه أجزاؤه في مقاديرها ، والأبيات في مقاطعها التي ينتهي بها كل بيت منها وكما يتميز الشعر في صياغته بالوزن والقافية ، فانه يتميز في معانيه بما يصوره من عواطف الناس ، وميولهم ، وأهوائهم ونوازعهم ، **مثاثرا بالخيال ومؤثرا بالصور البيانية** التي تبهر بروعتها حينا ، وبدقتها حينا آخر ، وبالألفاظ المنتقاة التي تسحر بضخامتها مرة وبرقتها مرة ثانية ، وبعذوبتها مرة ثالثة ، ولذا سمي صاحبه (شاعرا) لشعوره من معاني القول ، وإصابة الوصف بما لا يشعر به غيره .

ولم يزل الشعر ديوان العرب قبل الاسلام لأنهم كانوا أميين ، ولم تكن الكتابة فيهم إلا لأهله ومن تعلم منهم ، **وما حفظت مآثرهم ومستحسن افعالهم ، ومكارمهم ، ومذكور احسابهم ووقائعهم إلا بالشعر** الذي قيل فيهم ، ونقلته الرواة عن شعرائهم ، ولولا الشعر ما عرفت أيامهم ولا مآثرهم .(١)

هذا هو الشعر ومازال يرقى في سلم الحضارة حتى صار فنا يعتمد ، ويتكفله الشعراء ، وتنشأ له الأصول ، والقواعد ، والدراسات والكتب ، وتشعبت فنونه وأقسامه باعتبارات شتى من حيث الصياغة وبحورها ، وقوانينها وقواعدها ، ومن حيث الأغراض وتنوعها إلى أقانين شتى ، إلى غير ذلك .

٤ ـ أما عن الشعر ومكانته في الدعوة إلى الله تعالى ، فان الشعر والنثر **كليهما جناحا التعبير والبيان** ، وما يقال في أحدهما جوازا ، أو كراهة ، أو تحريما ، أو بلاغة ، أو عيا يقال في الآخر ، وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقسط كبير من تعليم الأمة ـ مع القرآن الكريم ـ أدب القول والبيان كما كان يعلمها امر دينها ودنياها وناهيك بقوله صلى الله عليه وسلم : **(إن من البيان لسحرا ، وإن من الشعر لحكمة)** ـ رواه أحمد وأبو داود وغيرهما ـ

(١) انظر في تفصيل ذلك كتاب : نقد النثر لأبي الفرج قدامة بن جعفر ص ٧٦ وما بعدها .